حضور المتنبي في شعر أمل دنقل:

أ.فتيحة بلمبروك

جامعة الجيلالي اليابس

سيدي بلعباس

لأمل دنقل مع المتنبي لقاء استحال إلى توحّد، فقناع كامل يتناهى فيه صوت الشاعرين بنبرة مفجوعة بما يعانيه العرب من تخاذل وضعف إبان نكسة حزيران 1967م، التي عرجت بالشعر الحديث منعرجا حماسيا، وأصيب الشاعر العربي بخيبة الرجاء وتداعت له كل الأصوات بالـغمّر والتحسّر لما آل إليه الوطن والأمة العربية من وهن ، ومن حينها لم ينفثئ صدى الذاكرة ، وصدى المتنبي (على وجه الخصوص) المزمجر بمجد العرب الذي ولّى القهقرى.

ولعل تجربة أمل دنقل المتقنعة بشخصية المتنبي قد اتحد فيها الزمن التراثي بالزمن الحاضر، فأصبح متنبي العصر العباسي متحدثا بلسان عصر آخر، يدافع عن قضية أخرى في ظل تقاعس الحكام العرب، وكما كان سيف الدولة آنذاك أملا له وهو في بلاط كافور، بقي هذا الحلم يراود كلَّ عربي يطمح بوجود حاكم يذبُّ عنه أعداءه.

ففي قصيدة "من مذكرات المتنبي في مصر" كانت الكلمة تخرج من شاعرين بفيه واحد، ولازمت رؤيا المتنبي رؤيا أمل دنقل، وصار زمن الماضي مسبيَّ الزمن الحاضر فاضمحلّت الفواصل وتلاشت الحدود.

فلمَّا قال أمل دنقل:

أبصر تلك الشفة المثقوبة

ووجهه المسودَّ، والرجولة المسلوبة

أبكي على العروبة [i]

هذا يتناص مع بيت المتنبي:

وأنَّ ذا الأسود المثقوب مشفره تطيعه ذي العضاريط الرعاديد[ii]

تضمين يحمل نسبة الضنك ذاتها، ويواجه أمل دنقل حاضره متكئاً على قول المتنبي وكأن قصيدة "لا تشتري العبد" هي نفسها من تتكلم ، وتتواءم المواقف إذ إنَّ في نكسة حزيران من المرارة ما تلمَّظه المتنبي في بلاط كافور، وبشدَّة الحنق ذاته يقول أمل دنقل بلسان المتنبي:

يومئ، يستنشدني: أنشده عن سيفه الشجاع

وسيفه في غمده..يأكله الصدأ![iii]

قمة الاستهزاء، وفي هذا الخطاب مرسلة سياسية تروي الواقع الأليم الذي يعانيه الشاعر في بلاط الحكام، إذ يُطالَب بالاستنشاد عن شجاعة لا محلَّ لها من الوجود، يمثل المتنبي هنا رمز المثقف العربي، الذي تضطره السلطة لأن يقول غير ما يريد قوله، وأن يتصرف بعكس إرادته، وهذا يظهر جليا في الأفعال التي استعملها دنقل لتبدو الصورة أوضح: (**يومئ، يستنشدني: أنشده عن سيفه الشجاع**)، ففور طلب كافور لبى المتنبي، وما هاته بشخصيته، ولا برأيه لأنه في قرارة نفسه يقول: (**وسيفه في غمده يأكله الصدأُ**)؛ جملة بيانية رائعة تكني عن عدم وجود حروب يستعمل فيها السيف حتى أكله الصدأ، لكن الظلم باقٍ

أسير مثقل الخطى في ردهات القصر

أبصر أهل مصر

ينتظرونه .. ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع[iv]

نبرة خطابية استنطقها الشجن بالحيف والجور الذي تعانيه مصر في ظل حاكم يجمع المادحين في مجلسه، ويذر ذوي المظلمات مصطفين خارجا!، فأيُّ شجاعة هذه؟، إنَّها وقائع تاريخية ومشاهد تتكرر كلَّما راقها ذلك، والاستنجاد بشخصية المتنبي بالذات كان موفقا فهو ليس مجرد شاعر يمدح ويهجو، لكنَّه الناطق بلسان الواقع القومي، الذي لم يكن يرضيه الذلُّ والجبن والتقاعس الذي أصاب الأمَّة العربية لما أصبح الحكم يؤتى ولا يسألُ عن رعيَّةٍ.

وفي القصيدة صورة استهزائية تفضح الطرق التي يتعامل بها العرب، والتي أضحت حقيقةً متكررةً، صورة شعرية قدَّمها أمل دنقل في مشهد جارية تصيح: "واكافوراه" وهي مأسورة لدى البيزنطيين، وماذا فعل كافور الإخشيدي:

فصاح في غلامه أن يشتري جارية روميةً

تجلد كي تصيح " وارومـاه..وارومـاه "

..لكي يكون (العين بالعين

والسن بالسن)[v]

إنَّها الحيلة في التخلص من الأمور الشائكة ببرودة حس ونقص تدبير أَوَلَيس "نعيم كلب في بؤس أهله"؟.

ويبقى قناع المتنبي قائما ومحورا تتجاذبه كل أطراف القصيدة،ليحلم الشاعر بعدها بسيف الدولة " منقذ العرب" كما أسماه:

حلمت لحظة بكا

وجندك الشجعان يهتفون: سيف الدولة

وأنت شمس تختفي في هالة الغبار عند الجولة

ممتطياً جوادك الأشهب، شاهرا حسامك الطويل المهلكا

تصرخ في وجوه جنود الروم

بصيحة الحرب، فتسقط العيون في الحلقوم![vi]

في كلِّ مقطعٍ من قصيدة أمل دنقل تظهر لوحة تكشف الواقع التاريخي، ولوحة يتبدى فيها الحلم بحقيقة أخرى، وينتهي دور قناع المتنبي عند الجملة الأخيرة التي يقولها:

(ما حاجتي للسيف مشهوراً

مادمت قد جاورت كافورا)[vii]

هذا المقطع يذكرنا بقول المتنبي عن أولئك الذين نسوا الحرب وتخموا من الأكل والقعود في زمن كافور هذه الشخصية التي تحمل دلالة السلطة الجائرة بكل أبعادها:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمنا وما تفنى العناقيد[viii]

ويتدخل صوت أمل دنقل في الأخير ليتحدث عن عصره الراهن ويضَمِّنَ أبياتا من شعر المتنبي، وقصيدة "عيد بأيَّة حالٍ" دائما، وبالسخرية ذاتها يقول:

عيد بأيَّةِ حال عدت يا عيد؟

بما مضى؟ أم لأرضي فيك تهويد؟

نامت نواطير مصر عن عساكرها

وحاربت بدلا منها الأناشيد

ناديت: يا نيل هل تجري المياه دماً[ix]

لكي تفيض، ويصحو الأهل إن نودوا؟

عيد بأيَّةِ حالٍ عدت يا عيد؟[x]

تحول السياق التاريخي إلى معادلٍ موضوعي معاصر، واستخدم قناع المتنبي عنوانا على مرحلة حديثة تكررت فيها مواقف تراثية مشابهة، وفي كل شخصية تظهر في النص تلوح دلالات تزاوج بين الحلم وبين الواقع، الماضي والحاضر، الثابت والمتغير، وفي

كلِّ فضيحة يستكشفها دنقل يبحث عن دور الشاعر إزاء ما يحدث من فجائع، وإزاء السلطة التي تأمره بقول نعم في مقابل نداءِ ضميره وحضِّه على قول لا.

إنَّها حرب نفسية يشنُّها أمل دنقل على غطارفة الصمت والخضوع، على هلافيت لم تجد لها في مكان العزِّ مستقراً، ولا في وجه العدوِّ إلاَّ المفرَّ، في أرضٍ تستنسر البغاث، ويستتر لسان الحق، ليعلو ويسمو صوت الباطل.

لقد استطاع دنقل أن يبني قناعاً يجسِّد من خلاله تجربته الذهنية والوجدانية، وكان لحضور الدراما الحوارية وكذا المونولوجية الأثر الفاعل في القصيدة، إذ شحنت برؤى قومية وأيدولوجية عمقت الشعور الروحي بثقل هزيمة حزيران، إنَّه قناع "الأنا" الذي فرض نفسه ليتحول تدريجيا من خيبة الذات إلى خيبة "النحن" الجماعية، توسع حتى طغى على الفضاء كلِّه، وكان الصوت المتكلم من أوَّلِ النص إلى آخره عبارة عن انتقاد لاذع لما يعتور الأمَّة العربية من هنات.

لقد قزَّم الزمن الفاصل بين العهد العباسي وبين العصر الحديث، وأضاء زمناً جديداً أثَّثهُ بتفاصيل تجمع الواقع والحلم في نقطةٍ واحدة تسارع إلى أذهان القراء لتجري فيها مختلف الترابطات التي تعمق الإحساس بخطورة الوضع المتشظي.

إنَّ رموزاً مثل: خولة (أخت سيف الدولة)، سيف الدولة، كافور، ماهي إلاَّ بيادق ساكنة وبؤر قلقة حرَّكها دنقل داخل النص، ثمَّ حمَّلها مغازيه، ثمَّ شحنها بطاقة زمنية آنية، ودفعها في وجه مكان لا عهد لها به، فأجبرها على الوقوف في مواجهة اليأس والانهزام الذي يعاني منه الشاعر.

أمَّا الرمز الأكبر المتنبي فقد أرهقه الشاعر بتحمل أقصى درجات الأحداث المعاصرة لتكون:" التضمينات في نهاية القصيدة-منبئةً- عن محاولة تنفيس عما يعتمل في النفس، باستخدام ثقوب الكلمات التي تراوح بين أبيات المتنبي القديم وبين مقاصد المتنبي الجديد، وهي في ذلك كله تواكب الحادثة القديمة الجديدة"[xi]

فملازمة الرؤيا القديمة للرؤيا الجديدة تعدُّ من جملة الأهداف التي سطَّرها الشاعر المعاصر ليحدث المفاجأة، ويقلص الفجوة بين الزمنين، ويضعَّف وتيرة القلق الشعري لدى أبي الطيَّب، لتحمل هاته الشخصية همًّا مشتركاً زمكانيا.

هذه تجربة أمل دنقل والمتنبي، تجربة لا تبدأ هنا لتنتهي هناك؛ إنَّما تحمل حركةً متواصلةً بماضٍ وحاضر وربّما مستقبل.

الهوامش

[i]- أمل دنقل، الأعمال الشعرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ب.ط، 1995، ص237.

[ii]- أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح وضبط وتقديم علي العسيلي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص394.

[iii]- أمل دنقل، الأعمال الكاملة، ص 238.

[iv]– م.ن، ص 238.

[v]– م.ن، ص 240.

[vi]– م.س، ص 241.

[vii]– أمل دنقل، الأعمال الكاملةص242.

[viii]– المتنبي، الديوان، ص394.

[ix]– أمل دنقل، الأعمال الكاملة، ص242.

[x]– م.ن، ص.ن

[xi]– رجاء عيد، لغة الشعر "قراءة في الشعر العربي الحديث"، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر ، ب.ط،1985، ص